التصوف في الاسلام

للدكتور زكى مبارك

أكتب هذه الكلمة وأنا متردد حيران : لأني أشفق على الاسلام من الافراط فى المقترحات . يضاف إلي ذلك أن هذه الكلمة تخالف بعض الشيء ما جاء فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » من مهاجمة غلاة الصوفية . لا سيما وقد قررت هناك أن التصوف ليس فى جملته مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية . وانما هو مزيج من عدة مذاهب هندية وفارسية ويونانية نقلت الى المسلمين ، وصادفت هوى فى نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ووضعوا لها على حسابه القواعد والاصول .

ثم قضيت بما نصه :

« ويمكن الحكم بأن ما فى التصوف من الدعوة الي طهارة الباطن ، وحب الخير ، وبغض الشر ، وما الى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، يرجع فى جوهره الى روح الاسلام . أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد في الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين : لان الاسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يعد معتنقيه لان يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فأنه يلبس أصحابه روح العبيد »

وأنا اليوم أعتقد أن التصوف ضرورى للاسلام . وقد صارحت محرر مجلة المعرفة بذلك فصاح : « زكى مبارك يرد على زكى مبارك »

ويظهر أنه لم يكن يسرنى أن أنقض اليوم ما قررت بالامس ، لهذا عدت الى كتاب (الاخلاق عند الغزالى) فرأيت أنى لم أسىء الي التصوف . وانما هاجمت الشعوذة التى يحيا بها المخبولون على حساب الدين

ومن الحق أن التصوف فتح الباب لجماعة من الجهلة الخادعين ، وأعانهم على تحقير الاسلام ، وتصويره بما ينافى الكرامة والجلال

ولا تزال مع الاسف بقايا لتلك العهود المظلمة ، فهناك فريق من الاوباش يتزيا بزي الصوفية ، ويعيش بوجهين : وجه للناس ووجه للشيطان !

وأمثال أولئك الدجالين يبغضون الجمهور فى التصوف واهله ، ويحملونه على مهاجمة جميع المريدين

ولأترك هذا جانبا فقد شفيت صدرى في كتاب الاخلاق عند الغزالى . وأعود فأصارح جماهير المسلمين بالحقيقة الآتية :

لقد شاع منذ أزمان أن الاسلام دين ساذج بسيط تكفى فيه كلمة التوحيد . وانا أرى أن بساطة الاسلام كما كانت سبب انتشاره ستكون من أسباب ضعفه . وهذه حقيقة مؤلمة وإلى القارئ شرحها :

لو تقدم اثنان من الدعاة فى أمة وثنية ، وكان احدهما يبشر بالاسلام الخالص ، وثانيهما يبشر بالاسلام ممزوجا بالتصوف ، لكان الفوز للثانى بلاجدال

ذلك بأن المبشر بالاسلام الخالص ، يلقى كلمة التوحيد ، وطائفة من التعاليم المجردة ثم ينصرف . أما المبشر بالاسلام المتصوف ، فيضيف الى العقيدة ألوانا كثيرة من التعاليم والعبادات ، تنتهي بجذب المهتدى الى الدين الجديد . وفى رأيي أن التصوف فى الاسلام يقوم بنفس المهمة التى تقوم بها الكثلكة فى المسيحية . لان التصوف مجموعة من الانظمة الروحية التى تصل الرجل بربه وتبعث فيه حياة الوجدان

وهذا الذى أقوله لم أصل اليه إلا بعد تجارب . فالمؤمنون الحقيقيون عندنا هم فى الاغلب من معتنقي المبادئ الصوفية . كما أن المؤمنين الحقيقيين فى المسيحية ، هم في الاغلب من الكاثوليك

ولنا ان ندرس حياتنا الدينية بنزاهة ، ولو فعلنا لرأينا المساجد المزخرفة اقدر على جذب النفوس من المساجد العادية . ولا عبرة بما يقال كل يوم عن بساطة مسجد الرسول عليه السلام ، فذاك زمان وهذا زمان . والخلاصة ان التصوف الصحيح يقدم الى المسلمين ما تحتاج اليه أرواحهم من الانظمة الجذابة التي تصل أفئدتهم وصلا ابديا بالدين الحنيف

وأقرر هنا بصراحة أن رؤساء الدين عند المسيحيين أنفع من رؤساء الدين عندنا وأعرف بدخائل نفوس المؤمنين

وفي يقيني انه لا يبعد أن تقوم عما قليل حروب صليبية جديدة ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون بقيت كلمة صغيرة : التصوف ضرورى للاسلام ، على شرط أن يكون نقيا نظيفا لا تشوبه الاهواء والاغراض ، فهل عندنا اليوم صوفية نطمئن اليهم ؟ قد يكون ذلك ، ولكن كيف ودعاة التصوف يعتمدون على اللحية الطويلة والكم العريض ؟

على أن الازهر لا يزال موجودا ، ومن الممكن أن نأمل أن تضيء من بعض جوانبه بوارق التصوف النقى النظيف

وبعد فتلك كلمة حق كتبناها فى صراحة كما طلب محرر المعرفة . فان أغضبت فريقا من الناس فلا ضير : لأنى رجل لا أعرف إلا ربى عز شأنه ، وأنا فى أنس به ، وهيهات أن أفكر في مجاملة من طغوا فى الدنيا على حساب الدين . والله من ورائهم محيط

زكي مبارك